طال هذا المقال فوق ما أردنا وقد كتبناه وهذه التذكارات كلها ما زالت حديثة العهد في نفسنا . وقد صرفنا في كتابته ثلاثة ايام استعدنا فيها في الذهن جميع شؤون الولايات المتحدة وتذكاراتها شأنا شأنًا وتذكارا تذكاراً لنستخرج هذه الخلاصة منها . وكان مرتب الحروف في اثناء ذلك يغضب و يصيح و يطلب التتمة كأنه ظن ان درس مدنية متشعبة الاصول والفروع عظيمة الاثر والعين كالمدنية الاميركية مما يسهل استخراجه وتسطيره في ساعة او يوم . و بعد مراجعتنا في ذهننا شؤون اميركا كلها حين كتابة هذا الفصل لم يلذ لنا شيء كمطالعة وداعنا لاميركا الذي كتبناه في الطريق بعد الرحيل عنها وهو خطاب الى تمثال الحرية العظيم المنصوب في مرفاء نيو يورك يستقبل الواردين و يودع الصادرين بنور القبس المرفوع بيده الهائلة وقد مرّت بنا السفينة امامه حين خروجها بنا من المرفاء (١) وقد ضاق المجال عن نشر هذا الوداع في هذا الجزء . فموعدنا به الجزء التالي ان شاء الله .

عقدة المسائل الاجتماعية

أثار الكلام فيها سعادة احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية بكتابه الجديد (روح الاجتماع)

بحث هذا وقته

اهدى الينا جناب الفاضل خليل بك صادق صاحب (مطبعة الشعب ومكتبته ومسامراته) نسخة من كتاب (روح الاجتماع) الذي ظهر في الشهر الماضي وهو من تأليف العالم الدكتور غوستاف لوبون الفرنسوي وقد عربه سعادة المفضال احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية . وقد أذكرنا ظهور هذا الكتاب العلمي النفيس معرباً بقلم سعادة وكيل نظارة الحقانية قولاً قاله افلاطون في (جمهوريته) وهو : ان اسعد الامم الامة

(١) كتبنا هذا الخطاب على طريقة (الخطبة لدى شلالات نياغرا) التي نشرناها في الجزء الثامن للسنة السابقة

التي يحكمها العلماء والفلاسفة . وقد رمى افلاطون في كتابه الى تأييد هذه الفكرة وجعلها مدار كلامه ومنتهى غرضه . ومن علم ان كتاب سعادة فتحي باشا الجديد هو سابع كتاب له باللغة العربية وقد وجد فرصة للاشتغال باخراجه الى لغتنا مع مالديه من شواغل الوزارة والحكومة فلا يتمالك ان يتذكر قول افلاطون هذا .

﴿ مارأيناه في باريز من روح الجماعات ﴾ ومن غرائب الاتفاق ان نجد في وجهنا في الاسبوع الذي وصلنا فيه الى مصر كتاباً كهذا الكتاب . فاننا في اثناء رحلتنا أطلنا البحث والتفكير غير مرة في موضوعه حين مشاهدتنا آثار شعوب الارض وآخر مرة كانت في باريز حيث اقمنا فيها ستة اسابيع صرفناجانباً عظيماً منها في غشيان مجتمعات (الجماعات) التي هي موضوع كتاب سعادة فتحي باشا وكانت يومئذ قضية فرر قائمة في اوروبا على ساق وقدم وجماعات من الفرنسويين يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع لاقامة الحجة على سجنه ومحاكمته . فحضرنا جلساتهم وتهنا بين صفوفهم وهم الوف الوف في نادي فوميال ينادون ويدعون وينشدون وهبت علينا (روحهم) في اثناء منادلتهم واناشيدهم الثورية هبوباً تقشعرّ له الابدان . وسمعنا خطب غلاتهم ونخص منهم بالذكر (هرفه) زعيم الاشتراكيين الثوريين الذي كنا نتوق الى استماعه لانه أحدث اثراً في شعوب أوروبا بمبادئه الغريبة التي نشرها وتابعه كثيرون فيها والتي اذا نفذت خربت الهيئة الاجتماعية الحاضرة واقامت هيئة جديدة الله اعلم بنتيجتها . ولعلّ هذه المباديء وامثالها مما هو اقلّ غلواً منها (كمباديء مركس وبيل وجوريس وكسد) هي التي جعلت الدكتور غوستاف لوبون يكتب كتابه (روح الاجتماع) الذي نحن الآن في صدده لانه ظهر لنا ان فصول الكتاب بمنزلة ردّ عليها . راجع الفصل الثاني في (مشاعر الجماعات واخلاقها) والفصل الثالث في (قواد الجماعات وطرقهم في الاقناع). فان الصور المرسومة فيهما صور حقيقية كدنا نلمسها بيدنا في اثناء تلك الاجتماعات . هذا بقطع النظر عن طبيعية حكم المؤلف عليها .

وفي الحقيقة ان سعادة فتحي باشا زغلول ذو فضل عظيم في توجيهه بكتابه الجديد نظر الجمهور الشرقي الى هذه المسألة التي هي عقدة المسائل الاجتماعية . فان هذا وقت البحث فيها بينما الشرق يتمخض بالم وعناء في هذا الطور من تأريخه ليلد (المستقبل) الذي نرجو ان يكون عظيماً باذن الله . والمستقبل انما يصاغ من افكار الجيل الحاضر وآرائهم نعني افكار قادتهم وحكامهم وحكمائهم واهل الرأي فيهم فضلاً عن (روح جماعاتهم) كما يقول غوستاف لوبون . فمن سداد الرأي ان يُبسط للجمهور الشرقي منذ

الآن — بل الآن خاصةً — جميع الآراء والمذاهب العلمية والاجتماعية التي تساعده في تكوين مستقبله وانارة طريقه .

﴿ كلمة حاكم ﴾ عرب سعادة المعرب الكتاب ولم يبدِ رأيا في موضوعه . وكل ما كتبه فيه من عنده هذه العبارة الجميلة في مقدّمة صغيرة « طلب مني ان أضع مقدّمة تشرح بعض موضوع الكتاب وتبين طرفًا مما اشتمل عليه فترددتُ كثيراً ثم رأيتُ ان اترك الشرح والبيان للقراء انفسهم واذا كنتُ نقلت الكتاب الى العربية نقلاً صادقًا صحيحًا فان معانيه تنساب في نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان » وبديهي ان مؤلفًا ومعربًا يشغل منصبًا في الحكومة من اعظم مناصب القطر المصري لا يجيز لنفسه ان يقول في موضوع كهذا الموضوع اكثر مما قال .

﴿ خلاصة الكتاب ﴾ غرض المؤلف في هذا الكتاب ان يثبت انّ هذا الزمن زمن سلطة الجموع (او الجماعات) وانه اشد الازمنة حرجًا في تأريخ البشرية وان تلك السلطة سلطة الجموع نشأت عن امرين الاول « تهدّم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة . والثاني قيام احوال جديدة ونشوء افكار جديدة في الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية « وانه « لما كان تهدم الافكار القديمة لم يتمّ فلم تزل قوتها وكانت الافكار التي ستحل محلها في طور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحوّل وفوضى » وانه يعسر التكهن « بما قد يتولد من هذا الوقت وما هي الافكار الاساسية والمبادئ الاولية التي سيقوم عليها بناء الامم التي تخلفنا » ولكن الذي نراه منذ الساعة ان جميع المعتقدات والسلطات اخذت تتداعى وتتحطم الاّ سلطة الجموع التي لا يهددها طاري . بل هي تعظم وتنمو . وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه (دور الجماعات) لا محالة .

وان تلك الجماعات اصبحت قوة تدرك منافعها ومالها من القوة والسلطان ولذلك أنشأت السنديكات (جمعيات العملة والمأجورين) التي تخضع لها السلطات واحدة بعد الاخرى وبورصات العمل (التي هي غير البورصات التجارية لانها خاصة بالعملة وفيها مجتمع جمعياتهم وفروعها) . وان السنديكات وبورصات العمل تطمح الى التسلط على العمل والعملة واجورهم وتطلب (تحديد ساعات العمل ونزع ملكية (كذا) (١) المعادن والسكك

(١) سترى في مايلي بيانًا يثبت ان حضرة المؤلف الدكتور لوبون لم ينصف في تلخيص هذه المطالب بل بترها بتراً لتأييد حجته على أهلها ودعم رأيه .

الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتوزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء (كذا) واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك)

فلهذا السبب «استولى الهلع على الكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات المتوسطة في الامم وخشوا عاقبة ذلك السلطان فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين سلطانها الادبي وتأثيرها الروحي بعد ان بالغوا في احتقارها وغالوا في اهمال جانبها . ونادوا بافلاس العلم في طريقة تهذيب النفوس . وفات اولئك المتدينين من جديد ان الوقت قد فات وانه ليس في طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الالهية جعل مياه الانهار تصب في ينابيعها . وما افلس العلم ولا ذنب له في فوضى الافكار التي انتشرت ولا في سلطة الجماعات التي تنمو وسط تلك الفوضى» وانما الذنب «للايدي الطائشة التي ازالت بالتدريج جميع الحواجز التي كانت تمنع من طغيان الجماعات» «توجد علامات عامة ظاهرة في جميع الامم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لارجاء في وقوفه آجلاً ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتجه بالقهر عنا فكل قول فيه باطل لافائدة منه ومن الجائز ان تولى الجماعات قياد الامم أن يكون خاتمة ادوار مدنية الغرب فيرجع الى الانغماس في اودية الفوضى»

هذه خلاصة فكرة المؤلف وما بقي من الكتاب فصول شرح فيها هذه الفكرة بعلم غزير وبيان ضاف شرحاً بناه على مشاهداته ومطالعاته .

﴿ من هم الجماعات ﴾ ولا بد ان القارئ يتساءل من هم الجماعات التي صعقها جناب الدكتور غوستاف لوبون هذه الصعقة في كتابه . أهي الشعب ؟ كلا فانه يقول فيه ان (روح الشعب تمثل حالة الحضارة واما روح الجماعات فتمثل حالة الهمجية) (الصفحة ١٩٩) ولعل المؤلف احسن الظن بالشعب هذا الاحسان اولا لئلا يتهم بالتحامل على شعب باسره والرجوع الى مبداء الاستبداد والاستعباد وثانياً ليقول ما قاله في الصفحة ٩٩ وهو ان التقاليد ضرورية للهيئة الاجتماعية وغني عن البيان ان الشعب مصدر هذه التقاليد وهي خلاصته وروحه كما قال المؤلف كما انه غني عن البيان ان هذه التقاليد هي مستند المحافظين في كل شأن من شؤون الحياة وحجتهم الكبرى على خصومهم . وقد اوجد المسيو موريس باراس الفرنسوي مذهباً له خاصاً بها فراج بعض الرواج لدى طالبي السدود والحدود لصد تيار الآراء الحديثة . ومن الاسف ان نرى انهم لا يكونون على الدوام مخطئين في التمسك بها من بعض الوجوه وفي بعض الاطوار ..

وانما عرّف المؤلف مراده بالجماعات في قوله (الصفحة ٢٤) «الجماعات بالمعنى المتعارف

اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة (ذكوراً كانوا او أُناثاً) وعلي اي نحو اجتمعوا . اما في علم النفس (وهو الذي يقصده هنا) فلها معنى آخر . ففي بعض الظروف يتولد في الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الا انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصاً لم أجد لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة او الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذي تخضع الجماعات لحكمه » « وان مجرد اجتماع افراد كثيرين اتفاقاً لايكسبهم صفة الجماعة المنظمة فان الف نفس اجتمعوا عرضاً في رحبة واسعة لغير قصد معين لايكونون جماعة عند علماء النفس بل لابد في توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة »

ومعنى هذا ان الجماعات المقصودة بكلامه هي (الجماعات المنظمة) ولها قصد معين وغرض معلوم تسعى اليه . فيدخل فيها سنديكات العمل من صناع وزراع ومستخدمين ولجان الانتخاب والمنتخبين انفسهم كما ترى ذلك واضحاً في الكتاب . والأحزاب السياسية في البرلمان وخارجه . وجماعة المحلفين(الجوري)لدى محاكم الجنايات والمحامين والطوائف العسكرية والدينية ورؤسائهم . وطبقات الجموع الاواسط وجموع أهل الريف الخ الخ . ومن رأي المؤلف ان هذه الجماعات خاضعة على الدوام لحكم اللاشعور و يغلب فيها انحطاط القوة العاملة فاذا تناولت رأي كل فرد من افرادها فرداً فرداً رأيته أرقى من رأي مجموعها ولكن روح المجموع يتأثر بمؤثرات مخصوصة تجعله احط من رأي افرادها. وانها سريعة التصديق والاندفاع الى الشجاعة والشر والعوبة في ايدي زعمائها الذين يؤثرون عليها لا بالمعقول بل من طريق مشاعرها الغريزية فيجارونها و وسائلهم التأكيد والتكرار والعدوى فيظهر انهم متسلطون عليها وفي الحقيقة انهم انما يتبعونها . وانها تعد الخيالات حقائق ولا تدرك الافعال العالية الاّ بعد تغيرها .وانه من الخطاء الاعتقاد بان للتعليم تأثيراً فيها . وان الحكومات اصبحت لهذا السبب ضعيفة عن قيادة الافكار كما كانت تقودها في الزمن السابق . وان «النظام النيابي اقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة في العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد في الناس وان كان علم النفس يراه خطأً وهو ان العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت في الامور بالعقل والرؤية والاستقلال » وان المجالس النيابية مع كونها « احسن الوسائل التي اهتدت اليها الامم في حكم نفسها » الاّ

ان المؤلف لا يرى لها من الجهة العملية « الاَّ ضررين كبيرين الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه والثاني الترقي في تحديد الحرية الشخصية » وابان في فصل مسهب ما سبقه اليه جول سيمون الذى تهكم عليه المؤلف (في الصفحة ٢٤٦) من نقائص المجالس النيابية في كتابه (الحرية السياسية) . وختم كتابه بنعيب هائل في ثلاث صفحات بالغة أقصى حدود البلاغة الرياسية تنبأ فيها للهيئة الاجتماعية بالفناء . ومنها قوله « علامة تلك الساعة التي لا مفرَّ منها تكون على الدوام ضعف اليقين بالمقصد (Ideal) الذي اتكأت عليه روح الشعب وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التي كانت تستمد منه حياتها » « وكلما انزوى خيال الشعب (Ideal) فقد هو علة امتزاجه وداعي وحدته وموجد قوته وتمت شخصية الافراد وعظم الذكاء فيهم غير ان ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محلَّ الاثرة القومية . ووراءه انطماس الاخلاق وضعف القدرة على العمل » « واذا تمَّ فقدان الخيال تمَّ فقدان روح الامة فتعود خليطاً من الناس كل يعمل على شاكلته وترجع الى ما كانت عليه منذ بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية فلا شعور ولا أمل . هنالك تنعدم اساطين المدنية وتمسي هدفاً لحوادث الاتفاق وتصير العامة سلطانة في الناس وتبدو طلائع المتوحشين » ومعنى هذا ان الشعوب انما تتكون (بايديال) تتخذه لها وتعظم باتباعها هذا (الايديال) فاذا تركته سقطت وفنيت وروح الجماعات وسلطتهم اشد العوامل في اسقاط هذا (الايديال) — هذه خلاصة فكرة المؤلف في ثلاثة أسطر .

﴿ رد اهل المذهب الآخر ﴾ لا نتذكر اين قرأنا عن المؤلف الدكتور غوستاف لوبون انه قال عن نفسه ان أحد أصدقائه كتب اليه فقال انه اي الدكتور لوبون يخالف في كتاباته كل ماهو معروف . وعليه فابحاث المؤلف وآراؤه لا تخرج عن كونها معارضة في مبادىء المدنية الحاضرة واصولها . وكل معارض يبالغ في كلامه في اكثر الاحيان ليحدث اثراً شديداً في نفوس سامعيه او قرائه . ولكن هذه المعارضة غاية في الفائدة في هذا الزمن للسبب الذي أشرنا اليه آنفاً وخاصة في شأن كهذا الشأن يحتمل افراط البشر فيه فمن الصواب ان ينهض حيناً بعد حين رجل كالمؤلف وينعب بينهم ذلك النعيب الهائل بصوت ارفع من الاصوات التي نسمعها كل يوم في جرائد المحافظين الاجتماعيين في اوروبا واميركا .

ذلك لان لهذه الآراء التي بسطها المؤلف دعاة كثيرين اليوم في اوروبا واميركا

ولكن مما نعده شرفاً للمؤلف انه لا يضع يده في ايديهم في جميع المسائل بل يكتب مالهم وما عليهم كما يكتب المفكر وهو بعيد عن ضوضاء الحياة وغوغاء الناس. وقد لخصنا مذهبه آنفاً فعلينا الآن ان نلمّ بطرف من مذهب الفريق الآخر الذي يعارضه المؤلف ليكون القارئ على بينة من المذهبين (ويسمع الجرسين) كما يقول الافرنج في امثالهم فتتمّ الفائدة

فاهل المذهب الآخر يقولون مثلاً مايلي « ان المؤلف مصيب في قوله ان الشعوب تنحط وتنقرض اذا لم يكن لها (ايديال) أو غرض عمومي شريف تسعى اليه وتلتفّ حوله. ولكن الخلاف الذي بين الفريقين هو انّ هذا الايديال نفسه يتغير و يتبدل طبقاً لمبداء التحول . فقد كان الايديال من قبل لدى الفرنسويين مثلاً ان يسفكوا دماءهم في سبيل الله والملك وهذا سبب استماتتهم في غزوة الشرق في الحروب الصليبية . ثم اصبح ايديالهم بعد الثورة الفرنسوية الاستماتة في سبيل الحرية والجمهورية فافنوا بعضهم بعضاً في بدء الثورة . فاذا كانت الاحزاب المتطرفة منهم قد تغير اليوم ايديالها تغيراً ثالثاً وأصبح همها منصرفاً الى استخلاص السلطة الاقتصادية والمالية من ايدي الافراد والشركات (بعد ان يُدفع لها تعويض كافٍ) لوضعها في ايدي الحكومة لتتمكن الحكومة من نفع الشعب بها ورفع الطبقات الضعيفة أو الدنيئة الى مرتبة ارفع تليق بالبشرية ليعيشوا معيشة البشر لا معيشة البهائم فهذا ايديال عظيم ايضاً كل ايديال جميل اذا كان تحقيقه ممكناً . لما دنس احد المتطرفين المتهوسين الراية الفرنسوية سراً في احدى الفرق العسكرية منذ نحو شهرين اذ القاها في المرحاض نكاية بالاحزاب الوطنية والعسكرية والدينية والمالية قامت قيامة الجرائد المحافظة والمعتدلة على ذلك المتهوّس والصقت فعلته بالراديكاليين والاشتراكيين وجرائدهم . فكان الصمت جواب المعتدلين من هؤلاء ولكن المتطرفين قالوا لهم بصراحة ان ايديالكم ليس بايديالنا واذا كنتم انتم تجعلون شرفكم ووطنكم وايديالكم في قطعة نسيج ملون وتغضبون له هذا الغضب فايديالنا نحن وشرفنا ووطننا في مبادئنا التي هي مبادئ الثورة الفرنسوية ومقتضاها رفع شأن الشعب ومحاربة الاستبداد الاقتصادي والمالي الذي يضغط على حياته كما حاربنا الاستبداد السياسي من قبل. ولا نبحث هنا في صحة هذا الايديال او فساده وانما نقول ان الجماعة التي تظهرها اظهرته جماعة العملة واحزاب الشعب من القوة والنشاط وعدم المبالاة بالعقاب والموت والاستهداف لسنابك الخيل وحراب الجند في المظاهرات والاعتصابات والتضامن الغريب الذي بينها لا تكون جماعة دون ايديال

وانما ايديالها يختلف عن ايديال الدكتور لوبون مثلاً . فانه هو ينظر الى الامم والحكومات ومستقبلها من وجه وهي تنظر اليها من وجه آخر . ولا يلتقيان الا متى التقى الفرقدان

هذه هي النقطة الاساسية في البحث . ثم تتفرع منها تتمته . ان الجماعات والسنديكات التي أشار اليها الدكتور لوبون هي جمهور الشعب الفرنسوي كله مجتمعاً في جمعيات كل جمعية لفرع من فروع حياته من اكبرها الى أصغرها وحسبك ان للمتسولين في الشوارع سنديكات (١) فاذا كانت هذه الجماعات كلها لاتحسن تدبير شؤونها الخصوصية والشؤون العمومية فالشعب الفرنسوي كله اذاً عاجز قاصر . وجميع اعتراضات الدكتور لوبون الموجهة الى تلك الجماعات تتوجه الى الشعب كله ولا ينقذه من هذه التهمة اطراؤه الشعب وتقاليده في سطرين أو ثلاثة من كتابه . وكم من مرة ونحن نطالع هذا الكتاب قلنا ان رأي الدكتور لوبون في الشعوب رأي الذين يقولون انها ولدت اطفالاً و بقيت اطفالاً محتاجة الى وصاية الطبقات الارستوقراسية والسياسية وستبقى كذلك الى ما شاء الله . وهذا الرأي وجيه لدى كثيرين من المفكرين المخلصين فضلاً عن الذين يستفيدون منه وهو يحتمل البحث والنظر . بقي ان يقال ان الاعتراض ليس على كفاءة الشعب بل على عجز (روح الجماعات) عن جودة السياسة والرئاسة لان تركيبها يوجد هذا العجز فيها . ولكن هذا القول يعارض كثيراً من الآراء التي ذهب اليها علماء العمران . قال الفيلسوف جول سيمون في كتابه (الحرية السياسية) ما خلاصته ان الافراد الذين تتألف منهم الجماعات النيابية مثلاً قد يكونون ضعفاء وكل واحد منهم على حدته غير قادر على السياسة ولكنهم اذا اجتمعوا وتألف منهم المجلس ارتقت آراؤهم وهي مجموعة عن معدل آراء كل فرد منهم . يعني ان روح المجلس تكون طبعاً ارقى من روح كل فرد من افراده واجتماعهم هو سبب هذا الارتقاء ولذلك تكون الامم التي ليس فيها افراد نوابغ قادرة على سياسة نفسها بروح تلك المجالس . اذن فمن نصدق . الدكتور لوبون او السياسي المحنك والفيلسوف المشهور جول سيمون الذي ليس في استطاعة احد

(١) هم متسولو مرسيليا المصابون في اجسامهم باعضاء مريضة او مبتورة انشأوا سنديكات تتولى مقاومة المتسولين الذين يظهرون انهم مقطوعون مع انهم اصحاء الاجسام وذلك لاطلاع الحكومة على أمرهم منعاً لمزاحمتهم لهم لان التسول ممنوع شرعاً لا للمأذونين

رميه بالتزلف الى الشعب بعد مابدا منه من دلائل استقلال الفكر قولاً وفعلاً — قولاً في مانشره في كتبه من تحذير الديموقراطية من نقائصها وفعلاً في مافعله في عهد نابوليون الثالث اذكسر مستقبله كسراً باحتجاجه على حكومته احتجاجاً افضى الى فصله عن السربون التي كان أحد أساتذتها وما فعله في عهد الجمهورية نفسها يوم قاوم حزبه الجمهوري نفسه في شأن المادة السابعة من قانون التعليم وهدم نفسه لديهم هدماً بهذه المقاومة ولولاها لارتقى الى رئاسة الجمهورية ومات وهو من أعظم رجالها. وهب ان رأي الدكتور لوبون هو الصحيح وراي جول سيمون هو الباطل فان رأي الدكتور لوبون في هذا الشأن يقتضي فض الجمعيات والسنديكات وجعل جمهور الشعب افراداً ضعفاء بازاء الحكومة وبازاء انفسهم. وهل يجوز في هذا العصر الذي نهض فيه اكابر اهل العلم والسياسة والفلسفة ينشطون الامم الى التجمع في جمعيات تشتغل كل واحدة منها بما يختص بها في دائرة اختصاصها وترقيه بتعاون افرادها عليه كما ارتقى العلم والصناعة والزراعة والتجارة بهذا التعاون نفسه هل يجوز والحالة هذه في هذا العصر ان تُمد مطرقة الدكتور لوبون الشديدة الى اساس هذا البناء الذي هو بناء الحضارة الجديد لتقويضه وهدمه. وماذا يبقى للامم اذا فضت جميع جمعياتها وسنديكاتها واسيء الظن بربانانها ونحاكمها — ماذا يبقى لها غير نير ملك قاهر او امبراطور جائر يوضع على عنقها لاستعبادها والاستبداد بها وبيع مرافقها ومنافعها بيع السماح. واذا كان لايقصد هذا ولا ذاك فاي فائدة اذاً ينتج من مهاجمة اساس الهيئة الاجتماعية هذه المهاجمة سوى غرس الحيرة والشك في نفوس الناس وعلى الخصوص النابتة الجديدة وتنفيرهم حتى من الاساس الذي قامت عليه الحضارة وتثبيط هممهم وافناء قواهم بهذه الحيرة والشك

وقد يكون غرض المؤلف في كتابه ان يثبت أمراً أبعد من الأمر الظاهر. وهو ان الجنس البشري غير قابل للكمال وانه كطائفة النمل متى بلغ في مدنيته حداً محدوداً عاد وتدلى راجعاً ادراجه. وهذا ايضاً فيه نظر لان أهل العلم بين قائل بقابلية الكمال وقائل بعدم القابلية. واذا كان سبنسر ودروين يقولان بمذهب النشوء والارتقاء ويضعان مبدأ « ان الافضل يُنسخ بما هو افضل منه » كما قال ابن رشد في كتابه تهافت التهافت فان نيتش وغيره ينكرون قابلية الكمال ويجحدون ان للوجود غاية غير غاية تقوية الفرد وزيادة قوى الانسان حتى تفوق قواه الحاضرة. ولكن اذا كان الجنس البشري غير قابل للكمال وانما حظه — او سوء حظه — التراوح في اطوار التأريخ بين الانحطاط والارتقاء والصعود

والهبوط كما قال الدكتور لوبون فالأمر يكون اذاً بين يدي القوة « فمن غلب سلب ومن عزَّ بزَّ » وهذا يجيز لطبقات الضعفاء في الامم ان تستجمع قواها وتعد جميع معداتها لمنازعة من تدعوهم خصومها وتستخلص من ايديهم ما امكنها استخلاصه . فلا جناح عليها اذاً في ما تفعله التماساً للمنافع كما انه لاجناح على خصومها اذا ابواعليها اعطاءها ماتطلبه . فان قويت أخذت والا حُرمت

على انه قد يكون للمؤلف غرض آخر اقرب مما تقدم وهو ان السبب في وضعه كتابه هو الرغبة في التهويل مع المهولين على الحكومة الفرنسوية لتقلص من ظل جمعيات العملة ومطالب الشعب وتترك التساهل معهم خدمة لأهل المصالح المالية والاقتصادية . ومهما يكن من الأمر فان تلك الحرب التي تدور رحاها الآن في العالم اجمع بين المأجورين والمستأجرين او اهل العمل واهل المال والتي ذكرنا طرفاً منها منذ بضع سنوات في كتيب عنوانه (الدين والعلم والمال) انما هي حرب يخلق بالمفكر المنصف ان يقف بازائها وقفة المشفق الداعي الى اخماد نار الاحقاد والتوفيق بين تلك المصالح المختلفة والمباديء المتعارضة ما امكن التوفيق . واذا مال بعض الميل الى الجانب الضعيف وان لم يكن على حق فميله عدل ورحمة معاً لان شقاءهم في هذه الدنيا شديد . وما من فائدة لاحد في زيادة مسافة الخلف بين الفريقين والقاء الهشيم على النار لتزداد وقوداً .

على انه اذا لم يكن من فائدة لهذا الكتاب المكتوب بعلم غزير سوى اثارة البحث في موضوعه بين الشرقيين وجعل ما فيه من الآراء والافكار عبرة لنا في بدء دخولنا الحياة الدستورية في البلاد العثمانية وقبل دخولنا هذه الحياة في القطر المصري لئلا نجمح فيسوء المصير — فحسبنا هذه الفائدة . وعلى القارئ العربي ان يقتنيه و يدرسه درساً و يستفيد بمعلوماته العلمية الدقيقة وان لم يشارك المؤلف في جميع آرائه . وتعريبه متين جميل للغاية جزى الله سعادة معربه المفضال خيراً عن قراء اللغة العربية واكثر بيننا من أمثاله رجال الهمة والعلم والفضل الذين هم موضع آمال الشرق وابنائه